مع كتاب الله

للأستاذ أبو بكر ذكرى
أستاذ الأخلاق بكلية أصول الدين

﴿ آية واحدة فى القرآن . . ﴾

عندما اختار الله سبحانه لرسالته الخاتمة للرسالات المتممة لمنهج السماوات ، نبيه الأعظم ورسوله الأكرم محمدا ﷺ كان أعظم فضل خصه به واسمى ميزة خص بها رسالته الخالدة ذلك القرآن العظيم الذى يتألق على الخلود سناه ويتوهج نوره ويزدهر كماله ولا يزيده مر الأبد إلا نورا على نور وسمـــوا على سمو وازدهارا على ازدهار وإعجازا على إعجاز .

إن هذا القرآن العظيم على نظمه البديع الرائق وأسلوبه الباذخ الفائق ليجمع من طرق الإرشاد وقواعد السلوك الخير ونظم الاجتماع العليا وتعاليم الأخلاق الفضلى ما تنبهر أمام عظمته العقول ، وتخشع أمام جلاله القلوب ، ولا ينفد على مر الزمان عجبه ولا تنقص على تجدد الحدثان روعة آياته البينات .

وحسبنا أن نتأمل من بين آياته الخالدة آية واحدة تجمع فى ثناياها دستور أمة كاملة ونظام مجتمع مثالى بل نظام عام شامل وحياة تامة كاملة فاضلة . وتلك آية واحدة لن ننسى ؛ منذ كنا عاكفين على عمل تفسيرنا لكتاب الله العظيم ؛ خلال العام المنصرم ، ما أخذنا أمام تلاوتها من عجب ؛ بل ما أصابنا من ذهول ودهشة :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

يالها من فاتحة رائقة للآية الكريمة المعجزة الخالدة ؛ أن يدعونا الله سبحانه إلى الاعتصام بحبله والتمسك بدينه وشريعته كما لو كنا جميعا مشدودين إليها بحبل متين

لا انفصام له ولا انقطاع . وإذا كان الحبل المادى من أليافه وخيوطه وأنسجته المعروفة كم يتمسك به حى أو يربط به غير حى ؛ فينجو من الغرق فى قاع لجة ، أو من السقوط والتردى من شاهق إلى مكان سحيق ؛ أو يربط به الحيوان الشرود فيمنع ضياعه وهلاكه إلى غير ذلك من منافع الربط ؛ فما بالنا بحبل الله الأكرم ورباطه الأعز الأعظم يعصمنا من الزلل ويبعدنا من الخطل ويحمينا من نزوات الضلال ووساوس الجانب الشيطانى فينا ويمسكنا على الجهاد والصبر والتقوى ومكارم الأخلاق ويربى فينا الجانب الإنسانى والملكانى فتتألق فينا هبات الله العليا وتلوح علينا مشارق أنواره العظمى ونيكون جديرين باسم « عباد الله المخلصين » .

ويأله من شفع رائع عظيم أن يشفع الله سبحانه ذلك الأمر بنهى عباده عن التفرق « ولا تتفرقوا » فكان من بالغ وعظه وبليغ رحمته أن لم يقتصر على الأمر بالاعتصام وإن كان فيه الكفاية لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فأراد سبحانه بهذا النهى أن ينبهنا إلى جانب خطير آخر فى طبيعتنا إن لم نلتفت إلى خطره كنا من الهالكين ولما كانت طبيعتنا الإنسانية تسرع إلى الخير أحيانا بما لدعوته من نفحة عذبة ورنين جميل فقد يحدث أحيانا أخرى أن تؤتى من حيث لا تشعر بسبب الجانب الشيطانى منها فننسى ما ارتبطنا به من حبل الله المتين الذى يجمع وحدتنا ويلم شتاتنا ؛ وننفصل منه ونفترق عنه ؛ جريا وراء الشهوات وطلبا لمفاتن الدنيا التى كم فرقت مجتمعين وشتت ملتئمين وألقت العداوة والبغضاء بين أخوة مترابطين .

وما أبدع قوله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى مايفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . . . » وقد صدق رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق . فما كادت زهرة الدنيا تتجمع فى المحيط الإسلامى وتنمو وتزدهر حتى جرى وراءها من لم ينتبهوا إلى غدر الجانب الشيطانى فى الطبيعة الإنسانية ؛ ونسوا دعوة الله إلى الاعتصام ونهيه عن التفرق فتفرقوا أوزاعا غير شاعرين بأن ذلك انتصار لجانب الشر على جانب الخير . وكان الحق أن ينتصر الخير على الشر ويدفعه فإذا هو زاهق . وما أبدع ماحذرنا به الشاعر البليغ إذ يقول :

وكم من مجيب دعـــوة الخير حاسبا بأن قـد نجا من كل شر ومأثم
تخوّنه من جانب الطبع خائن فأهـوى وأمسى كالوعاء المحطم

وياله من تعليم أدبى رفيع أن يعلمنا سبحانه شكره على آلائه بتذكر نعمائه علينا بأن أنقذنا من العداوة والقساوة وشرة الطباع السبعية الوحشية فعلمنا الصداقة والإخاء والحب والتعاون والتضحية والترابط أمام شدائد الدنيا ومحنها وآلامها بعد أن كنا أمة جاهلية ضالة فى دينها ودنياها غارقة فى شرورها ومآثمها . كل ذلك لنهتدى بهدى الله ونتمسك بدينه وشريعته فنكون خير أمة أخرجت للناس .

إن هذه الآية الخالدة الرائعة لتحتاج فى تفسيرها التفصيلى إلى عشرات الصحائف بل إلى سفر كامل . وحسبنا فى مقال محدود أن نشير إلى مدى بلاغتها وعظمتها وإعجازها ومالا يدرك كله لا يترك جله . ومالا يدرك جله لا تترك الاشارة إليه حسب الطاقة وجهد الوسع وعسى أن يتولانا الله بعنايته فنكون من المهتدين ؟

أبو بكر ذكرى
أستاذ الأخلاق بكلية أصول الدين

الله . . .

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحىّ من الميت ؛ ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنّى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا لكم الآيات لقوم يعلمون . . ﴾

الأنعام (٩٧)